دَعوة إلى المنهَج المقَارن في دراسَة الأدبُ العَربي الحَديث ونقده

● د. عبد النبي اصطيف

مضى عصر النبوة ، ومن الصعوبة بمكان أن يتنبأ المرء دعوة جديدة ، بله أن يدّعي مهمة تبليغ رسالة ما تتصل بها . والأدب المقارن بعد ذلك ليس ديناً جديداً ، حتى في هذه الأرض ، وإن كان كفتى المتنبي ، غريب الوجه واليد واللسان ، كان وما زال . فعلى الرغم من مزور أكثر من عشر سنوات على البدء بتدريس مادة الأدب المقارن في كلية الآداب في جامعة دمشق[1] . إلا أن مكتبة الأدب المقارن في هذا القطر ، على سبيل المثال ، ما زالت تقتصر على كتاب الأستاذ الدكتور حسام الخطيب[2] ، وبضع مقالات متفرقة في مختلف الدوريات العربية . أما في خارج القطر فثمة عدد لا بأس به من المحاولات[3] لتقديم بديل عن كتاب الدكتور محمد غنيمي هلال مؤسس الأدب المقارن الحقيقي في الوطن العربي وهي محاولات واعدة وجسورة ، ولكن من الصعب على المرء أن يضع يده على قلبه ويشير باطمئنان إلى أحدها على

أنه هذا البديل لأن معظمها قد تم إنجازه لضرورات تدريسية أو فوق تدريسية مختلفة وضمن ظروف بحثية لا تسمح بتجاوز مستوى معين من الإتقان وهو مستوى لا يقارن على أي حال بمستوى أي كتاب جامعي في الجامعات غير العربية التي تدرس هذا الحقل المعرفي الهام[٤] . إن هذه المحاولات محاولات هاوية وهواية الكتابة في الأدب المقارن في الوطن العربي تخضع لما تخضع له أية هواية أخرى من ظروف وشروط ومؤثرات لا أريد أن أتحدث عنها الآن لأن حديثها ذو شجون ونحن نجتمع اليوم اجتماع المتفائل المتطلع إلى آفاق مشرقة في مستقبل هذا الحقل المعرفي في مختلف جامعات الوطن العربي ومؤسساته التعليمية والثقافية الأخرى . وحسب ملتقانا هذا أن يتيح لنا منبراً مسموعاً لكل من ظفر بالتأهيل المناسب في هذا الميدان حتى لا يلوذ بالصمت ، أو حتى لا ينتهي إليه ، وربما لا يظفر عندها حتى بمجرد شرف النعوة ، لو فكر في عالم آخر أكثر إنصافاً من عالمنا هذا .

من هنا كانت سعادتي كبيرة حقاً بهذا الملتقى ، لأني أرى فيه هذا المنبر الذي ينبغي أن يهدف من بين ما يهدف إليه ، إلى نشر الاهتمام بالأدب المقارن حتى لا يتحول المقارنون في الوطن العربي إلى أعضاء في ناد من أندية الصفوة التي تنظر إلى نفسها في مرآة هذه النفس فقط . إنني إذ أعتلي هذا المنبر لأدعو إلى المنهج المقارن في دراسة الأدب العربي الحديث ونقده . لأود منذ البداية أن أبين أنني **لا أدعو إلى الأدب المقارن حقلاً معرفياً هاماً ظفر باستقلاله منذ زمن في معظم الثقافات التي تنتمي بحق إلى قرننا هذا ، بل ضرورة منهجية ملحة غاية الإلحاح في مواجهتنا لطبيعة أدبنا الحديث والمعاصر والنهوض به أيضاً .** إنني لآمل أن أدلل من خلال هذا البحث على **أن السبيل الأكثر جدوى في**

التعامل مع هذا الأدب هو السبيل المقارن . فما دامت طبيعة المادة المدروسة هي التي تحدد النحو الأمثل لدراستها ، والمنهج الأشد فاعلية في مباشرتها فإن تبني المنهج المقارن في دراسة الأدب العربي الحديث ونقده ، ضرورة تمليها طبيعة هذا الأدب نفسه ، إضافة إلى ضرورة الانتماء الحق إلى هذا العصر ، بدل العيش عالة عليه كما هو شأننا حتى اليوم .

ولكن ماذا عن طبيعة الأدب العربي الحديث ؟

لو واجهنا ـ نحن مستهلكي الأدب أو منتجيه ـ سؤال كهذا ، لآثرنا أن نشير إلى عينات من هذا الأدب ، بدل المغامرة بإدلاء بشيء ما عن طبيعته . وهذا أمر متفهم فالمستهلك والمنتج معنيان أساساً بالإنتاج الفعلي الذي يستطيعان الإشارة إليه ، والدارس من جهة أخرى ، وعملاً بمبدأ أقل الجهود ، ربما وجد هذه الإشارة أيسر عليه من التأمل في طبيعة هذا الأدب . ومهما كان الأمر ، فإن الأدب العربي الحديث بالنسبة لنا هو **ثلاثية** نجيب محفوظ ، **وأيام** طه حسين **والنمور في اليوم العاشر** لزكريا تامر ، **والملك هو الملك** لسعد الله ونوس ، **ومفرد بصيغة الجمع** لأدونيس وجبران لميخائيل نعيمة **وصندوق الدنيا** للمازني . إذ أنه مهما اختلف النقاد العرب المحدثون حول طبيعة الأدب العربي الحديث أو مكوناته ، أو خصائصه ، أو قضاياه ، فإنهم لن يماروا في أن هذه الأعمال التي تقدم ذكرها ، أعمال أدبية عربية حديثة في شكلها ومضمونها ، في حساسيتها الفنية وفي حساسيتها النفسية ، في العالم الذي تقدمه لنا ، والرؤية التي تجسدها لهذا العالم .

ونظرة عجلى إلى هذه الأعمال تبين لنا أنها تنتمي إلى أنواع أدبية

معنيـة . **فالثـلاثيـة تنتمي إلى الـروايـة** The Novel **وجـبران نعيمـة إلى السيرة** Biography **والنمور في اليوم العاشر إلى القصة القصيرة أو الأقصوصة** Short Story **، وأيام طه حسين إلى السيرة الذاتية** Autobiography **وصندوق الدنيا إلى المقالة** Essay **والملك هو الملك إلى المسرحية** Drama **، ومفرد بصيغة الجمع إلى الشعر .**

ولست أظن أن هنـاك من يماري اليـوم في أن الأنـواع الأدبيـة السـتة الأولى ، أنـواع مستـوحـاة من التقـاليد الأدبية الأوروبية ، على الرغم من أن هنـاك من يجهـد نفسـه بطـائـل ، أو بغير طائل على الأغلب ، في البحث عن جذور لها في تقـاليـدنـا الأدبية الكلاسية . وهذا أمر مشروع ومتفهم ، إلا أنه ـ فيما يبدو لي ، وربما لكثيرين من الدارسين المعاصرين ـ غير مجد . لأن الإنتاج العربي في هذه الأنواع نتاج حفزته أساساً عملية المواجهة مع الآخر ، وهو أوربا في هذه الحـال إذا ما رغبنـا في شيء من التحديد ـ هذه المواجهة المتعددة الوجوه والأبعاد والمستويات والتي استغرقت جميع جوانب حياتنا العربية الحديثة والمعاصرة .

ولكن ماذا عن الشعر العربي الحديث ؟

هل الشعـر العـربي الحـديث شعـر حديث لمجرد كونه قد أنتج في العقود الأربعـة الأخـيرة أي أن لفـظ الحـديث هو مجرد وصف زمني يزول بمـرور الوقت ، ويغدو بعده الحديث قديماً ؟ أم أنه ذو أبعاد تتجاوز حدود هذا الوصف الزمني ؟

الحقيقة أن معظم دارسي الشعر العربي الحديث ، بما فيهم المكابرون والمفرطون في حماسهم لكمال التقليد الشعري العربي العريق ، يميلون إلى الاعتقاد بأن هذا الشعر شعر يدير وجهه نحو الآخر والعصر ، أكثر مما يدير وجهه نحو التقليد العربي الكلاسي الذي يمتد أكثر من خمسة عشر قرناً . فقد استطاعت جهود النقاد والشعراء العرب من جيل نعيمة والعقاد والمازني وشكري وطه حسين ، ومن بعدهم من جيل أبي شادي ومندور ولويس عوض ، ومن تلاهم من رواد الشعر العربي الحديث ، أن تنجح في **فك ارتباط هذا الشعر بالنموذج القديم** Old Model الذي يعتبر **أحمد شوقي أكبر دعاته ومؤيديه** ، وفي **ربطه بالحياة العربية المعاصرة** ـ هذه الحياة التي تعيش حالة من التحدي الدائم الذي تفرضه طبيعة المواجهة مع الخارجي ـ الآخر على جميع المستويات .

إن الشعر العربي الحديث ليس شعراً حديثاً لمجرد كونه قد كتب زمنياً في وقت متأخر ، ولكنه حديث لأنه في شكله ومضمونه ، صوره وتشكيلاته ، حساسيته النفسية وحساسيته الفنية ، مكوناته الأساسية والثانوية ، شعر مباين للشعر العربي الكلاسي ، والكلاسي الجديد ، مباينة أملتها طبيعة الحياة العربية والحديثة والمعاصرة ، لأن الأدب العربي الحديث أدب مرتبط استراتيجياً بهذه الحياة . إنه أدب يدير وجهه لها ، بعد أن أعرض عن النموذج الكلاسي القديم الذي استأثر به طويلاً .

ثمة إذن أدب عربي حديث يمكن تصنيفه تحت أنواع أدبية محددة مستوحاة من التقاليد الأدبية الأوروبية ، أو تحت نوع أدبي كلاسي ، ولكنه مباين له على نحو جذري في كثير من وجوهه .

وعلى الرغم من أن هذا الأدب :

١) يتأثـر إلى حد بعيـد بالموروث الثقافي من خلال اللغة التي يستخدمها الأديب العربي الحديث ـ هذه اللغة التي ليست مجرد نظام لغوي Langue يحكم إنشـاءه الفـردي Parol ويكفـل له وصـولـه إلى الآخرين وحسب ، بل هي أداة للتفكـير لها إجـراءاتهـا وعـاداتها وأعرافها وقوانينها وقواعدها التي تفرض نفسها على مستخـدم هذه اللغـة ، وهي فوق هذا وذاك الأداة الأهم التي تتجلى من خلالها الثقافة الموروثة لمن يستخدم هذه اللغة .

ب ـ ويتأثـر كذلـك بجـوانب الحياة العربية المختلفة التي يحياها صاحب هذا الأدب ، إذ أن هذا الأدب فعـاليـة إنسـانيـة تتأثـر بباقي فعاليات الإنسان الأخـرى ـ والحيـاة العـربيـة الحـديثـة بشكـل عام ـ تتأثر ، في مختلف وجوهها بالمواجهة مع الخارجي .

إلا أنـه يتعـرض أيضـاً لمؤثـر خارجي يتلمس المـرء آثاره بسهولة ويسر في مختلف وجـوهـه . بل إن الدارس ليفاجأ بحق بعمق هذا التأثير فيه من جهة ، واستغراقه لمستويات مختلفة ووجوه متنوعة منه .

ولنبدأ بأداة هذا الأدب ، وهي اللغة العربية الحديثة ، التي نفخر بعراقة أصـولهـا ، وكـونهـا لغـة القـرآن والحضارة العربية الإسلامية وما إلى ذلك ولا ندري أنها في كثير من مفرداتها وتراكيبها وطرق التفكير والمحاجة فيها وغير ذلك تكـاد تكـون ترجمـة حرفيـة للفـرنسية والإنكليزية والألمانية وغيرها من اللغات الحديثة التي يترجم عنها ، أو نمتح مما دون فيها مباشرة .

وقد كفانا باحثان كبيران عربي وإنكليزي بيان تأثير الفرنسية والإنكليزية على العربية . أما الأجنبي فهو البروفسور P. J. E. Cachia **بيير كاكيا**[٥] **أستاذ الأدب العربي في جامعة ادنبره سابقاً ، وأستاذ العربية في جامعة كولومبيا في نيويورك حالياً ، وأحد محرري مجلة الأدب العربي** Journal of Arabic Literature والذي ينطق بالعربية من أي الشدقين شاء إذ أمضى جزءاً غير يسير من حياته في مصر . وأما العربي فهو الدكتور **لويس عوض**[٦] **تلميذ طه حسين ، وأحد النوافذ الهامة التي أتيحت للقارىء العربي على الآداب الأجنبية في العقود الخمسة الأخيرة .**

والواقع أن من يعود إلى ما أورداه من أدلة وأمثلة لوجوه تأثر العربية الحديثة بهاتين اللغتين وغيرهما لا يسعه إلا أن يقر بهذا التأثر . ولربما يفاجأ بمداه وعمقه . ولكن ذلك غير مستغرب فنحن نحاكي في جميع وجوه حياتنا نموذجاً أقرب إلى النموذج الغربي منه إلى النموذج العربي الكلاسي ، ومن الطبيعي أن نتأثر بأساليب التعبير عن هذه الوجوه في اللغات الأجنبية التي تستخدمها أمم هذا النموذج .

لقد كان للترجمة من جهة ، ولاستيعاب مثقفي العربية من المحدثين الكثير من عادات التفكير والتعبير في اللغات الأجنبية التي تثقفوا منها ، ولا سيما في الفرنسية والإنكليزية ، من جهة أخرى ، أثر كبير على اللغة العربية . والحقيقة أن هذا الأمر يكاد يبلغ درجة الثورة في التعبير العربي الذي تطورت بناه تطوراً ربما يحول بين مثقف العصر العباسي على سبيل المثال ، وبين استيعاب نصف ما يكتبه مثقفو الوطن العربي اليوم سواء في بحوثهم

ودراساتهم ، أو فيما تنشره الصحف على الناس من كتابات وأنباء[٧] . ولننظر على أي حال في وجوه هذا التطور :

* إن من يتأمل أي كتاب عربي حديث يجد أنه ، على خلاف الكتب العربية الكلاسية يتميز بوجود ظاهرتين هامتين هما **الفقرات وعلامات الترقيم** . بالكتاب العربي الكلاسي يخلو على وجه الإجمال منهما معاً :

« ولولا أنه مقسم إلى أبواب أو أقسام أو فصول . . . يحمل كل منها عنواناً خاصاً ، لبدا كالمحيط العظيم ، له شاطئان هما بدايته ونهايته . ولكن ما بين شاطئيه تجري **جمله كآلاف الأمواج المتداخلة التي لا سبيل للفصل بينها ، كأنما فكر** الكاتب تيار لا ينقطع . وحيث ينبغي أن نجد نقطة في نهاية كل جملة مفيدة ، يفاجأ بواو العطف أو ما يماثلها تبدأ الجملة التالية ، وكأنما منطق الكاتب العربي هو أنه ما دام الكلام مهما طال لم ينته ، فقد وجبت صياغته كله وكأنه سلسلة متصلة الحلقات . في حين أن بناء التعبير الأوروبي قائم على أن المقال أو الفصل أو المبحث ، الوحدة فيه هي الموضوع وليست الجملة . ولما كان الموضوع مكوناً من عدة أفكار تخدم هذه الناحية الواحدة . ولما كانت كل فقرة مكونة من عدة جمل تدور حول مضمون الفقرة ، أمكن تقسيم كل فقرة إلى عدة جمل تدوراحول مضمون هذه الفقرة . بل ولما كانت الجملة ذاتها لكي تكون مفيدة ، وجب أن تعبر عن بناء منطقي أو بناء رمزي أو بناء عاطفي (بناء من أي نوع يقنع أي ملكة من ملكات الإنسان) ، وجب أن تكتمل إذا كات مركبة من

مبتـدأ ووصلة copula وخـبر أو من فاعل وفعل ومفعول به ، وأن تنتهي بالـوقفـة أو النـبرة أو الاسـتراحـة أو الفـاصل الكامل الذي يدل على انتهاء الكلام . . . . » .

وخـلاصة القول «إن التعبير في اللغات الأوروبية، لشدّة ارتباطه بالمنطق بفضل (ريطوريقا) أرسطو ، و (بروتوس) (شيشرون) (وأساس البلاغة) لكونتيليانوس ، يتبع فن المعمار والكلمة فيه هي الوحدة أو اللبنة والجملة فيه هي المـدمـاك والفقـرة هي الجـدار والمقال أو المبحث أو الفصل أو الخطبة هي الغرفة والكتـاب والبيت . أمـا التعبـير في اللغـة العـربيـة فهـو أقـرب إلى التسلسـل المـوسيقي حيث الجملة المـوسيقيـة تؤدي إلى ما يليهـا بغض النظـر عن إطـار الموضوع أو إطار الفقرة بل وأحياناً بغض النظر عن مضمون الجملة . ولذا نجد كثرة الاستطراد Digrossion والتداعي الحر Free Associaton في النثر العربي القديم »[٨] .

* لد خضعت بنية اللغة العربية لتطورات هامة نشأت عن العوامل التالية :

أ ـ « نحت آلاف الألفـاظ من مصطلحت الحضـارة في العلوم والفنـون والصناعات من جذور عربية[٩] مثل مدمرة ودبابة وبرقية ومستشار وسيارة وقاطرة وغـيرهـا . وقـد دخلت كلهـا عمـود اللغة العربية وقد بلغ من ضخامة عددها وشيـوع تداولهـا أنهـا غيرت من نسيـج اللغـة العـربية الذي ورثناه عن الأوائل بحيث يمكن أن يقال أننا **بإزاء لغة جديدة ، عربية في صورتها ومع ذلك فهي غير عربية في مضمونها** ، بحيث لو قرأها أحد من الأوائل لم يفهم منها كثيراً ولا

قليلاً رغم رسمها العربي وأصواتها العربية وقوالبها العربية »[١٠] .

ب ـ « تلوين الألفاظ والعبارات العربية الفصيحة بمدلولات لا تدخل في مفهومها الأصلي كما نعرفه من القواميس العربية ومن سياق الأدب العربي القديم[١١] كالخط ، والشريط والمكتب ، واستجواب وغيرها .

جـ ـ « ترجمة آلاف التعبيرات Locutions الوصفية أو الظرفية أو الحالية أو الاعتراضية أو التحفظية إلخ . الملازمة لطريقة التفكير والتعبير الأوروبي ، أولاً عن الفرنسية ثم عن الإنكليزية[١٢] مثل (مهما يكن من شيء) ، و(على أية حال) و (مع ذلك) و (في أثناء ذلك) و (ما أمكن ذلك) و (بقدر المستطاع) و (إلى حد أنه) و (من ناحية أخرى) ، وغيرها كثير .

د ـ استحداث صيغ مورفولوجية (صرفية) جديدة للتعبير عن ظلال المعاني[١٣] ، كاسم النسبة للدلالة على المذهب .

هـ ـ « استحداث بعض التغييرات في النحو العربي بما يجعل بناء الجملة العربية أقرب ما يكون إلى بناء الجملة الفرنسية أو (الإنكليزية)[١٤] ، لتقديم الجملة الفرعية ، أو استخدام الجملة الاسمية التي يكون خبرها جملة فعلية وغير ذلك .

وربما كانت هناك عوامل أخرى . ومن الجدير بالذكر أن أكثر هذه المؤثرات قد وفد أولاً :

« عن طريق الثقافة الفرنسية من عام ١٧٩٨ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ثم عن طريق الثقافة الأنجلوسكسونية التي أصبحت المؤثر الأول دون

منازع منذ الحرب العالمية الثانية . أما في فترة ما بين الحربين فقد ظلت الحرب سجالاً بين اللاتينيين والسكسونيين كما تدل المعارك الأدبية خلال الثلاثينات من هذا القرن[١٥] . ولا ننسى المؤثرات السلافية الروسية التي بدأت بممارسة دورها على استحياء في الثلاثينات وما لبثت أن غدت ذات دور بارز في الحياة الثقافية العربية وخاصة في المشرق العربي منذ الخمسينات وحتى يومنا هذا[١٦] .

وإذا ما تركنا أداة الأدب ، التي تأثرت هذا التأثير الهائل باللغات الأجنبية ، إلى الأنواع الأدبية المختلفة التي توظف في إنشائها ، وجدنا أن هذه الأنواع الأدبية الجديدة المستوحاة من التقاليد الأدبية الأوروبية تمارس تأثيراً واسع المدى على الأدب العربي الحديث .

ولنلاحظ بادىء ذي بدء أن الأدب العربي الحديث قد تعرف على هذه الأنواع ليس من خلال مخططات نظرية شرحت لمنتجيه ، ووضحت عناصرها ومكوناتها ووظائفها لهم حتى ينتجوا نسخاً عربية منها ـ رغم أن هذا يكفي ، لو كان ممكناً من الناحية النظرية ، للتأثير على هذه النسخ العربية تأثيراً كبيراً .

لقد تعرف الأدباء العرب المحدثون إلى هذه الأنواع من **خلال الأعمال الأدبية الأوروبية في اللغات الأوروبية المختلفة التي قرؤوها مترجمة أو بلغاتها الأم ـ تعرفوا إلى القصة القصيرة كنوع أدبي له مواصفات معينة من خلال قصص قصيرة لفلان أو لفلانة من الكتاب الأوروبيين ترجمت إلى العربية بصورة من الصور ، مباشرة أو عن طريق أخرى ، أو قرؤوها بلغتها الأم ، أو بلغة أخرى يعرفونها** . وكذا الشأن في الأنواع الأدبية الأخرى (كالرواية والمقالة والمسرحية والسيرة والسيرة الذاتية وحتى الشعر الحديث) التي تعرفوا إليها من

خلال **النماذج** ، أي من خلال **تجسيدات فعلية لهذه الأنواع التي لم يعرفها الأدب العربي من قبل** . ومعنى هذا أن قراءات منتجي الأدب العربي الحديث في الآداب الأجنبية (مترجمة أو مباشرة بلغات هذه الآداب) قامت وتقوم وستقوم أبداً بدور الساحة المغناطيسية التي تحدد على نحو من الأنحاء البنية العامة لتجاربهم العربية . إن هذه الآداب ستكون ماثلة في أذهان منتجي هذا الأدب من خلال :

أ ـ البنية الكلية للعمل الأدبي المستوحى شعورياً أو لا شعورياً .
ب ـ البنى الصغرى التي تؤلف هذه البنية الكلية .
جـ ـ العناصر المشكلة لهذه البنى الصغرى .
د ـ التقنيات المختلفة التي تستخدم عادة في هذه الأنواع .
هـ ـ الصور التي توظف لإضاءة جانب ما من جوانب النفس الإنسانية .

التي تبقى أبداً محور التجارب الفنية .

وفوق هذا وذاك هناك **التجربة الإنسانية الأجنبية** التي تعكسها أمثلة هذه الأنواع الأدبية . والأديب بحساسيته المرهفة ، عرضة دائماً للتأثر بجميع هذه الوجوه ، وخاصة الوجه الأخير ، أي التجربة الإنسانية المغايرة لتجربته والتي تثير فضوله من جهة وتعمق إنسانيته من جهة أخرى . وإضافة إلى كل ما تقدم ثمة المؤثرات العامة .

ـ **الفكرية** (كالماركسية والوجودية وغيرها) .

ـ **والفنية** (كالاتجاهات والمدارس والنظريات والقابليات والحساسيات الفنية) .

ـ والنفسية .

والتي تتجلى عادة من خلال تأثير المناخ العام السائد في فترة معينة أو حقبة معينة أوما سماه توماس س . كون Thomas S. Kuhn **بالمجال أو النموذج** Paradigm في كتابه العظيم (**بنية الثورات العلمية**)[١٧] The Structure of Scientific Revolutions .

ثمة إذن ، وباختصار شديد ، ثلاثة مكونات أساسية للأدب العربي الحديث :

أ ـ الموروث الثقافي .
ب ـ الحياة العربية الحديثة والمعاصرة .
جـ ـ العنصر الخارجي .

وإذا ما وضعنا جانباً **الموروث الثقافي** (وهو في جانب منه متأثر بالعنصر الخارجي في حقبة ما معينة من تاريخه الطويل) ، **والحياة العربية الحديثة والمعاصرة** (وهي متأثرة في جميع جوانبها بالعنصر الخارجي) . وانتقلنا إلى العنصر الخارجي لوجدنا أننا ـ بعد بيان أهميته المحددة لطبيعة الإنشاء الأدبي العربي الحديث ـ بحاجة إلى الاستجابة له منهجياً ، من خلال البحث عن طريقة للتعامل معه واستيعابه ، ما دامت طبيعة المادة المدروسة هي التي تملي أساساً الطريقة الأمثل والأكثر جدوى لدراستها ومباشرتها . ومعنى هذا أننا مضطرون للجنوء إلى المنظور المقارن comparative Perspective جزئياً أو كلياً في دراستنا لهذا الأدب . إنه ضرورة منهجية ملحة ، لا سبيل إلى إغفالها بحال من الأحوال .

ولكن ماذا عن فوائدها ؟

١ ـ لقد تحدثت مطولاً عن أهمية هذا المكون الخارجي في تشكيل الأدب العربي الحديث ودراسة هذا الأدب من منظور مقارن تتيح أول ما تتيح دراسة دور هذا المكون الخارجي فيه على مختلف المستويات والوجوه . إن النقد المعاصر ينظر إلى النص ـ أي نص ـ على أنه نسيج Texture محبوك من عدة خيوط ، أحكم نسجها فخفيت حتى على منشىء هذا النسيج بله قارئه ، ويرى أن مهامه الأساسية . في مواجهته لهذا النص ، الوقوع على خيوطه المكونة له ، وتحديد مدى أهميتها في بنية الكلية . فما دامت العملية الأدبية إنشاء Construction محكماً ، فإن العملية النقدية تغدو تفكيكاً لهذا الإنشاء Deconstruction من أجل معرفة أسرار تكوينه . وما دام النص حصيلة تراكمات لنصوص مختلفة Accumulation of texts تسربت إلى تكوين الأديب الثقافي بشتى السبل ، فإن دراسة النص الجديد لا تكتمل إلا بدراسة عملية تفاعل النصوص هذه ، أو عملية **التناص** هذه Intertoxtuality ، من أجل تحديد عناصرها وسبل اندفاعها فيما بينها ، وأهمية كل منها في تشكيل النص النهائي الذي نحن بصدد دراسته .

٢ ـ وثمة أمر هام وهو أننا في دراستنا للنصوص الأدبية ـ في تحليلنا لها ، وشرحها وتفسيرها نحرص كل الحرص على معرفة مصادرها ولما كان العنصر الخارجي مصدراً هاماً من مصادر الأعمال الأدبية العربية الحديثة ، **فإن دراسة** هذه الأعمال لا تكتمل إلا بالعناية بدراسة هذا المصدر . **إن القارىء للأدب** العربي الحديث يقع على الكثير من الإشارات الأدبية والثقافية **وغيرهما فيه** .

وفهمه لهذا الأدب لا يكتمل بغير دراسة هذه الإشارات وتبين مغزاها ودلالتها . وهذا غير ممكن من غير تبني المنظور المقارن في دراسة هذا الأدب ونقده .

وربما كان من الهام الإشارة هنا إلى أن دراسة هذه الإشارات ينبغي أن يتم وفق خطا تتيح استيعابها وفهم دورها . فالناقد المقارن ينبغي أن يحدد أول ما يحدد مصدر هذه الإشارة ، ثم يدرسها في أصولها ، ويدرس سبل انتقالها ، والتحولات التي طرأت عليها في أثناء رحلتها بين المصدر الأصلي وبين نص نهاية المطاف . والوظيفة الجديدة التي تؤديها في النص الجديد الذي انتقلت إليه[١٨] .

٣ ـ أما الفائدة الثالثة فهي اكتشاف حصيلة المواجهة مع الخارجي وانعكاساتها على المستوى الأدبي . أو بعبارة أخرى ، الصورة الأدبية لعملية التفاعل مع الثقافات الأخرى على جميع المستويات . وبالتالي تقويم عملية المواجهة هذه في مجملها ، وتطويرها على نحو يؤدي في النهاية الغاية المطلوبة[١٩] .

٤ ـ وأما الفائدة الرابعة فهي الوصول إلى تقويم أكثر موضوعية وقرباً من واقع حال الأعمال الأدبية العربية الحديثة نفسها . فما دمنا نضع العمل الأدبي في سياق أوسع فإن تقويمنا له سيكون محكوماً بما يسمى حس النسبة Sense of proportion ، وهو أمر هام إذا ما شئنا تطوير أدبنا تطويراً يوصله إلى مرتبة العالمية . لقد استطاعت أمة حديثة ضعيفة ومتخلفة ككولومبيا أن تهب العالم غارسيا ماركيز الذي فرض نفسه على القائمين على جائزة نوبل . وربما آن الأوان لنقدم كاتباً على هذا المستوى للعالم ونحسن بذلك الانتماء إليه بحق . وهذا لا يتم لنا إلا بتوسيع آفاق طموحاتنا لتتجاوز الوطن العربي إلى العالم ،

ويـرفـع مستـوى رؤ يتنـا للوجود لتمس جوهر الإنسان خارج وطننا أيضاً . وقد تستغربون إذا قلت لكم إن ذلك لا يكون إلا إذا كنا أنفسنا حقاً . وقليل ما هم .

جامعة دمشق

أيار ١٩٨٦

هوامـــش

(١) بدىء بتدريس مادة الأدب المقارن في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة دمشق في العام الدراسي ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ وقد عهد بها آنذاك إلى كل من الأستاذين الدكتورين : إحسان النص الذي تناول الجانب النظري ، وحسام الخطيب الذي انصرف إلى تدريس الجانب التطبيقي ، وخاصة موضوع المؤثرات الأجنبية في القصة السورية .

وبعد عودة الدكتور محمد عدنان حسين من الإيفاد تولى تدريس المادة نظراً وتطبيقاً بين عامي ١٩٧٧ ـ ١٩٨٠ عندما أعير إلى جامعة العين في دولة الإمارات العربية المتحدة التي بقي فيها حتى عام ١٩٨٤ . بعدها عاود تدريس المادة في ذلك العام (١٩٨٤ ـ ١٩٨٥) ، إلا أن الموت عاجله قبيل نهاية العام الدراسي ، وخسرت جامعة دمشق بذلك واحداً من أبرز مقارنيها المؤهلين في حقل العلاقات العربية الفارسية الأدبية . وانظر على أي حال رسالتيه للماجستير والدكتوراه المقدمتين إلى جامعة مانشستر في عامي ١٩٧٠ و١٩٧٥ :

ـ (تأثير الثقافة العربية على الشاعر الفارسي المنوجيهري) .

رسالة ماجستير مخطوطة ، جامعة مانشستر ، ١٩٧٠ .

ـ (دراسة مقارنة لشعر الغزل الغنائي العربي والفارسي من القرن الثاني وحتى القرن السادس الهجري ، الثامن إلى الثامن عشر الميلادي) .

رسالة دكتوراه مخطوطة ، جامعة مانشستر ، ١٩٧٥ .

(٢) انظر كتابه **سبل المؤثرات الأجنبية في القصة السورية** ، معهد البحوث والدراسات العالية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٣ . وأيضاً ، **الأدب المقارن** (جزءان) منشورات جامعة دمشق ، (١٩٨١ ـ ١٩٨٢) .

(٣) مثل محاولات صفاء خلوصي ، ومحمد عبد السلام كفافي ، وريمون طحان ، وبديع محمد جمعة ، وعبد الدايم الشوا وطه ندا ، وإبراهيم عبد الرحمن محمد ، وداود سلوم ، وغيرهم .

(٤) قارن المحاولات العربية بالكتب التالية التي تدرس في الجامعات الإنكليزية والأمريكية .

a. A. O. Aldridge (edit.), **Comparative Literature : Mattor and ethod** University of Illinoisspres, urbana, 1969.

b. N. P. Stallknecht and H. Frenz (edits.), **Comparative Literature : Method and Perspective,** Revised Edition, Arcturus Books, 1971.

C. U. Weisstein, **Comprative Literature and Literary Theory: Survey and Introduction,** Indina University Press, Bloomington, 1973.

d. F. Jost, **Introduction to Comparative Literature,** Pegasus, Indianapolis and NewYork, 1974.

e. R. J. Clements, **Comparative Literature As Academie Discipline,** Modern Language Association of America, NewYork, 1978.

إضافة إلى كتابي بول فان تيغم ، وم . ف . غويار المعنونين بـ (**الأدب المقارن**) اللذين ترجما إلى العربية منذ زمن ؛ وكتاب س س براور المترجم مؤخراً : (**الدراسات الأدبية المقارنة : مدخل**) ترجمة عارف حديفة ، دمشق ١٩٨٦ . ويجدر بالمرء أن يشير إلى أن مؤلف الكتاب الأخير هو برافر Prawer أستاذ الألمانية في جامعة أكسفورد ، وليس كما أورده المترجم الذي يبدو أنه قام بعمله بغير أناة .

(٥) انظر بحثه :

« The Use of the Colloquial in Modern Arabic Literature », **Journal of the American**

Oriental Society, Vol. 87, no.1, March 1976, PP. 12- 22.

(٦) انظر مقالاته المعنونة بـ (اللغة ومدارس التعبير) و (الترجمة وتطور التعبير العربي) و (ثورة اللغة) في كتابه (**ثقافتنا في مفترق الطرق**) ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٤ . ص ص (١٣٨ - ١٨٣) .

(٧) د. لويس عوض ، المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(٨) المرجع نفسه ص ص (١٧٠ - ١٧١) .

(٩) المرجع نفسه ص (١٧٢) .

(١٠) المرجع نفسه ص (١٧٣) .

(١١) المرجع نفسه ، ص ص (١٧٢ و١٧٧) .

(١٢) المرجع نفسه ص ص (١٧٣ و ١٨٠) .

(١٣) المرجع نفسه ص ص (١٧٣ و ١٧٥) .

(١٤) المرجع نفسه ص ص (١٧٣ و١٨٢) .

(١٥) المرجع نفسه ص (١٧٣) .

(١٦) للتوسع في دراسة سبل المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث انظر :

I. Hussam Al-Khateeb, « The European Relations of Modern Arabic Literature », **Actes du VIIIe Congres de LAssociation Internationale de Litterature Comparee, Akademiai Kiado, Budapest, 1981.**

II. A. N. Staif « The Question of Foreign Influences in Modern Arabic Literary Criticism », **Journal of Arabic Literature,** London, Vol. XVI, 1985.

(١٧) انظر :

Thomas S. Kuhn, **The Structure of Scientific Revolutions,** and Edition, Enlarged, The University of Chicago Press, 1970.

(١٨) انظر فصل : « Trveling Theory » من كتاب ادوارد سعيد :

Edward W. Said **The World, The Text and the Critic,** Harvard University Press, 1982, PP. 226 - 47.

(١٩) ينبغي الإشارة هنا إلى أن التأثير الأجنبي أمر جد طبيعي وقد كان أبداً مصدر خير للأمم التي تتفاعل ثقافاتها فيما بينها . فهو كما يقول د . محمد عبد الحي : « كالريح التي تستثير جمراً كامناً في رمادها حين يتراكم هذا الرماد لضعف يصيب الثقافة أو الشعر في فترة ما . . . فهو مثل السماد الذي يساعد في ازدهار النبات ولعله أحياناً عنصر ضروري لهذا الازدهار » ومن هنا كان علينا أن ننظر إليه نظرة أكثر إيجابية وقبولاً . وانظر :

د . محمد عبد الحي ، « **أنشودة المطر بين** اليوت وشيللي والتراث العربي » **المعرفة** (دمشق) ، السنة ١٨ ، العدد ٢١٢ ، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٩ ، ص ص (٧١ - ١٠٧) وخاصة ص (٨٦) .

الآداب الاجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب

العدد ٥١ ـ ٥٢ * السنة ١٤ * ربيع وصيف ١٩٨٧